التربية والتعليم في عهد الاستعمار الفرنسي
بين الذاتية والعلمية

د.بوزيدي محمد
جامعة معسكر

ملخص:

للتعرف على مقومات تربية شعب من الشعوب،وفهم حاضره لابد من التعرف على تطور مؤسساته ونظمه التربوية،والتي هي مفتاح فهم حضارته ومقومات شخصيته، متماشية مع الأحداث التاريخية والتطورات الاقتصادية،والاجتماعية للبلاد،فالمدارس الحديثة لم تكن في يوم من الأيام وليدة الأمس القريب،بل تبلورت في مسار تاريخي .

و الجزائر كبقية الشعوب عرفت فترات مشرفة وأخرى مظلمة،وذلك حسب المماليك والقوى التي توالت على حكم مناطق الجزائر المختلفة،وهو ما أثر دون شك على تحديد مسار التربية في بلادنا،وهذا ما نصبوا إليه من خلال المقالة بإبراز ماضي التعليم ومؤسساته التربوية في الجزائر،أهم المراحل التي مرت بها التربية قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه اليوم بالمفهوم المعاصر.

الكلمات المفتاحية: التربية،اللغةالعربية،المدارس.

Abstract :

In order to understand the fundamentals of the education of a people, and to understand its present, it is necessary to recognize the development of its institutions and educational systems, which are the key to understanding its civilization and its personality, in line with the historical events and economic and social developments of the country. Crystallized in a long historical course.

Algeria, like the rest of the peoples, has known honorable and dark periods, according to the Mamluks and the forces that dominated the rule of the different regions of Algeria. This undoubtedly influenced the definition of the course of education in our country. The stages that passed through education before reaching what reached today in the contemporary concept

Keywords: Education, Arabic Language, Schools.

تمهيد:

لقد وضع الشعب الجزائري عبر العصور قضايا التربية والتعليم في الصعيد الأول من اهتمامه،وترجع هذه العناية إلى عمق المشاعر الدينية لدى هذا الشعب الذي أقام مؤسساته الثقافية،ونظمه القضائية وعلاقته الاجتماعية على أساس تعاليم الإسلام،ذلك الذي أعطى للعلم صبغة مقدسة حين جعل من طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وكانت شؤون التربية والتعليم جزءا لا يتجزأ من المسائل الكبرى التي تقتضي تشاور الجماعة ومشاركة سائر أفراد الأمة في المداولات التي تتم بشأنها،وذلك تماما كما كانت الحال في الأمور الأخرى ذات الأهمية البالغة كالحرب والسلام،وتقسيم المياه واستثمار الأراضي.

انطلاقا من الشعور بأن التربية قضية حيوية ومسؤولية جماعية بالنسبة للجماعة كلها،فإن التعليم كان يحظى ،بصفة تلقائية،بدعم مادي هام،ويتمتع لدى كل مجموعة بموارد خاصة هي وقف عليه،مما أتاح للمدارس أن تنمو وتزدهر1.

شهادات بعض أفراد الاحتلال الفرنسي: قبل التطرق إلى التطور النسبي للتعليم ومؤسساته في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي،نتطرق إلى شهادات بعض أفراد بعثته عن واقع الحياة الثقافية للجزائر عند دخول الجيوش الغازية إليها،وفيما يلي بعض هذه الشهادات:

ذكر مارسيل ايمريث في هذا الموضوع قائلا«كان العربي في 1830 يعرف القراءة والكتابة،ولكنه أصبح يتخبط في ظلمات الجهل عندما مضى قرن على الاحتلال»2.

إذا تمعنا في هذا القول جيدا،نكتشف من خلاله مكانة التعليم في الجزائر المرموقة آنذاك،حيث كان متوفرا بشكل يغطي حاجية المواطن الى هذا الغذاء الروحي وما يؤكد لنا تلك الأرقام والمعطيات التي عرضها ميشال هاربارت في قوله:«كانت أكثر من مائة مدرسة في مدينة الجزائر،و86 في قسنطينة،و50 في تلمسان،وهذا عام 1830،و10 جامعات موزعة عبر التراب الجزائري»3.

بينما ذكر أحد ضباط فرنسا يصف وضعية التعليم في الجزائر قبل الاحتلال معترفا في الوقت ذاته بالتنظيم وتسير المحكمين في شؤون التعليم، بوجود العدد الكافي في المدارس لتلقين الشعب التعليم اللازم،حيث كان هناك في «مقاطعة تلمسان بالنسبة للمدينة ثلاثة (03) متوسطات، وخمسون (50) مدرسة بالنسبة لكل إثني عشرة (12000) إلى أربعة عشر ألف (14000) نسمة،وفي نواحيها كان هناك ثلاثون زاوية (30) بالنسبة لمائة وخمسة وعشرين ألف (125000) نسمة،وفي كل دوار هناك مدرسة وحوالي ألفي (2000) تلميذ يتلقون تعليمهم الثانوي،وحوالي ستة مائة (600) يتابعون تعليمهم العالي وفي كل مؤسسة توجد مكتبة»4.

وما يجدر الإشارة إليه،أنه لم تكن هناك وزارات مختصة بالتعليم خلال هذه المرحلة، فالتعليم مسؤولية جماعية يتعاون الكل حسب محدوديته والإمكانيات المتاحة لهإذ المؤسسات الدينية المسماة الحبوس أو الوقف كانت مهمتها في الغالب توفير الدعم المالي وضمان دفع أجور المعلمين وبناء أو صيانة المؤسسات التعليمية،أما التسيير الداخلي بما فيه سير العملية التعليمية ونجاحها فكان على عاتق الأهالي5.

إن الدولة لم يكن يهمها التعليم آنذاك لارتباطها بقضايا جوهرية وقومية والمتمثلة في الحفاظ على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود الترابية،وجمع الضرائب لبيت المال (الخزينة)،ولم تكن هذه المداخل وغيرها تنفق في سبيل التعليم وترقيته وإنما على أجور الجنود كثيري القلاقل والثورات وفي المعدات الحربية6.

من خلال ما سبق ذكره،من اعترافات لشخصيات بارزة لدى المستعمر الفرنسي،أن التعليم والتربية لدى الجزائريين يكتسي أهمية كبرى،رغم الحياة البدائية وبساطتها وقلة الإمكانيات.

فيا ترى ماهي الهياكل التعليمية التي كانت موضوعة تحت تصرف الجزائريين والتي ساهمت مساهمة فعالة في انتشار الإشعاع الثقافي ومنح المعلم وضعا اجتماعيا مرموقا 7،وأعطت المنظومة التعليمية البسيطة في بدايتها الثبات والبقاء ضد هيمنة الاحتلال.

1- الكتاتيب القرآنية: يطلق عليها اسم المسيد وهي غالبا ما تحتوي على حجرة أو حجرتين، وهدفها الأساسي تحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة8،ولصغر حجمها فهي تنتشر في القرى والمناطق النائية بكثرة عن المدن الكبرى كالعاصمة مثلا.

2- الزوايـــا: انتشرت خاصة في العهد العثماني نتيجة للتخلف واستبداد الحكام،وظهور ظاهرة التصوف،فإذا اشتهر أحد الناس بالورع والتقوى وشيء من العلم أسس له مكانا لاستقبال الزوار والطلاب،وللزاوية مهمات عدة منها قراءة القرآن الكريم،الندوات العلمية والصلاة،وتقوم مقام مؤسسات الدراسية الثانوية،ينتقل إليها طلاب العلم والفقه،وكان عدد الزوايا الموجودة في كل من العاصمة ،قسنطينة ونواحي تلمسان حوالي 349 زاوية9.

3- الرابطـــات: تشبه الزوايا في وظائفها الاجتماعية والثقافية المسندة إليها،إلا أنها تكون قريبة من مواقع الأعداء،ويقوم المرابطون بها بدورهم الجهادي إلى جانب المهام الأخرى كتعليم القراءة، الكتابة،حفظ القرآن الكريم وإعطاء تربية إسلامية قاعدية لشباب الدوار والقرية10.

4- المساجـــــد: انتشرت المساجد انتشارا واسعا في المدن وأماكن التجمعات السكنية الكبيرة والمتوسطة نتيجة اعتناق الجزائريين للدين الإسلامي،حيث تفنن البناؤون في بنائها وزخرفتها،ويطلق عليها اسم "جوامع" في الجزائر العاصمة،من أهم المساجد التي اشتهرت بدورها التربوي،الجامع الأخضر بقسنطينة،والجامع الكبير،والمسجد الكبير بتلمـــــسان11.

5-المدارس:تعتبر المدرسة مرحلة متقدمة من تطور المؤسسات التربوية،لقد ظهرت المدرسة في الجزائر متأخرة نسبيا،وبقيت المساجد والكتاتيب ودور العلماء هي مراكز النشاطات العلمية.

ومن أشهر المدارس التي ساهمت في تعليم اللغة العربية وعلوم القرآن،مدرسة العباد واليعقوبية في تلمسان،ومدرسة مازونة،ومدرسة حسن باشا،والمدرسة التاشفينية... الخ.

6-الدراسات العليا: لم توجد جامعة في الجزائر كمثيلتها بمصر والمغرب وتونس،لأن العثمانيين لم يهتموا على الإطلاق بالتعليم وتشجيعه،وخاصة التعليم العالي وبناء المدارس الكبيرة مع هذا فلم يمنعوا انتشاره،لأن بناء الكتاتيب والمساجد والزوايا كان مسؤولية اجتماعية وقد كان الأتراك يتقاطعون مع هذا الاتجاه،وساهموا فيه كأفراد بتقديم الصدقات12.

منهاج التعليم قبل الاحتلال: لقد كانت نتيجة دخول الإسلام إلى الجزائر،انتشار التعليم الديني ومؤسساته في ربوع الجزائر،وبهيمنة البرامج الدينية الإسلامية بكثرة في العملية التعلمية،دون إهمال الجانب العلمي والثقافي وحتى الحضاري.

أ) ففي المرحلة الأولي: يحفظ التلميذ القرآن الكريم، يختمه تقريبا في سن العاشرة مع إتقانه للكتابة والقراءة،كما يتعلم في هذه المرحلة أيضا مبادئ الحساب وقواعد الدين التي تكون أساس تعلمه في المرحلة المقبلة.13

ب)أما المرحلة الثانية: يتلقي المتعلم في هذه المرحلة علوما ودروسا مختلفة ومتنوعة،أي علوم النقلية،والعلوم العقلية.

فالأولي هي العلوم المتعلقة بالدين وما يحويه من التفسير،والفقه،وشرح الحديث النبوي الشريف وكل ما يتعلق بديننا الحنيف أما الثانية فهي العلوم التي تدخل في تعليم اللغة العربية وما يصاحبها من علم البلاغة والقواعد والنحو الخ.14

أهداف التعليم قبل الاحتلال: كانت أهداف التعليم المطبقة في الجزائر تنطبق تمام التطابق مع أهداف التربية الإسلامية المتبعة في سائر الأقطار العربية وخاصة الإسلامية خلال القرن 18 وأوائل القرن19،والتي يمكن أن نوجزها في النقاط التالية:

- نشر التعليم بين المواطنين على نطاق واسع.
- إعداد رجال يتولون تسير شؤون الدولة في مختلف القطاعات.
- طلب العلم حبا في العلم طبقا لقوله صلى الله عليه وسلم "طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِ مسلمْ".15

التعليم في عهد الاحتلال:لقد كان التعليم بمؤسساته المختلفة مزدهرا نسبيا قبل دخول الاستعمار الفرنسي نتيجة لضخامة الأوقاف المخصصة له،وذلك باعتراف الفرنسيين بأنفسهم،ومن أولى الخطوات التي قام بها المستعمر لتحقيق أهدافه الاستيطانية،مطاردته للعلماء وتشريدهم،لأنهم هم الذين يحرصون الأهالي على محاربة الصلبيين الغزاة،وقامت أيضا بتحطيم وهدم كثير من الزوايا والكتاتيب والمدارس وتحويل المساجد إلى كنائس،فعلى سبيل المثال كان هناك بعنابة حوالي 39 مؤسسة تعليمية، وزاويتين، و37 مسجدا،وبعد مضي فترة وجيزة على الاحتلال لم يبق سوى 03 مؤسسات تعليمية عمومية16، إلا أن أكبر ضربة وجهت للتعليم بصفة عامة، هي مصادرة الأملاك الدينية والأوقاف،بقرار من الحاكم العسكري الفرنسي كلوزيل يوم 07 ديسمبر 1830م،فكانت ضربة قاضية للتعليم الإسلامي، أي جانبها المادي ومصدر تمويلها.17

ويمكن إبرازها في المراحل التالية:

• مرحلة الانكماش: عملت فرنسا على القضاء على التعليم في الجزائر معتمدة التجهيل والتفقير والترهيب معا،وفي المقابل السماح للأهالي بتدريس أبنائهم في المدارس الفرنسية،وبطبيعة الحال فسياسة تعليم الأهالي تهدف أول ما تهدف إلى تحقيق هذين الهدفين وهما:

1. تمجيد القوة والحضارة الفرنسية.
2. تعقيد الطفل الجزائري منذ نشأته،وقبل اكتمال وعيه.

و في هذا النطاق قررت لتغالط الناس أنها لا ترى مانعا في تدريس اللغة العربية في المدارس الابتدائية المسماة بالعربية الفرنسية وفي المدارس الحكومية الثلاث على مستوى التعليم الثانوي وبعض الزوايا

المراقبة من بعيد.بقرار من السلطة الفرنسية وقت المملكة العربية في عهد نابليون الثالث (1808-1873)18.

إن اهتمام نابليون بالتعليم في الجزائر وخاصة الزوايا ليس من أجل تطوير التعليم العربي الإسلامي أو ترقية اللغة العربية،وإنما لخلق طبقة من المخبرين والجواسيس تعتمد عليهم فرنسا في فرض رقابتها السياسية والفكرية والحيلولة دون قيام ثورات ضدها يكون منطلقها تلك الزوايا. 19

• مرحلة الركود: لقد قامت سياسة الجمهورية الفرنسة الثالثة على انتهاج سياسة تسامح حذر،وهذا بإعلانها من جهتها عن إدماج أبنائها في النظم التعليمية والتربوية والسياسية المخصصة لأبنائهما الفرنسيين باسم الإدماج السياسي والاستعمار المسلط على الشعب الجزائري.

وفي هذا الصدد،هناك من المستعمرين من كان يرحب بفكرة تعليم الأهالي للغة الفرنسية ولا يرى في الوقت نفسه مانعا من تعلم الفرنسيين للغة العربية،لكن الأغلبية منهم ترفض رفضا قاطعا فكرة تعليم اللغة العربية للفرنسيين.

لقد كان تكوين أبناء المعمرين حقا وواجبا لا مجال لمناقشته،حيث فتحت المدارس تماشيا مع تكاثر عدد المعمرين،أما بالنسبة لتربية أبناء الجزائريين وتكوينهم في هذه المرحلة ،فقد مرت بمحطات مأساوية،ثم بداية خجولة ومترددة لبناء بعض المدارس التي عمل أبناء الأهالي على تجنبها وعدم التسجيل فيها لأنها لا ترمي إلى تحقيق أهداف الشعب الجزائري ولا تلائم تقاليده،بل العكس فهي تحارب الحضارة العربية الإسلامية وتقصد الفرنسة والتمسيح،وتحديد الكتاتيب والزوايا بدقة وشددت عليها المراقبة،ومنذ ذلك الحين تقهقرت اللغة العربية الأدبية،إذ كانت لا تدرس بدون أن يكون قد سعى إلى هذه النتيجة قصد.20

أما التعليم الثانوي والعالي فكانا شبه منعدمين،حيث لم يقبل بهما قبل 1900 سوى 84 طالبا مسلما وسطيا و150 قبل 1914 مما ميز هذه الفترة رغبة المستعمر الفرنسي في غزو الجزائر بالقضاء على اللغة العربية والهوية الوطنية.21

• مرحلة الانتعاش: إن هجرة عائلات كثيرة منتلمسان وسطيف وقسنطينة وسبدو و الرمشى و ندرومة سنة 1911 إلى سوريا لأسباب دينية وسياسية،والضجة الكبرى التي أحدثتها إجبارية الخدمة العسكرية في ندرومة وموت الكثير من الجزائريين في الحرب العالمية الأولي بجانب فرنساوبروز في نفس الوقت مجموعة من المثقفين الجزائريين،كلها عوامل أدت إلى تفطن وحماس الشباب الجزائري للتعلم واسترجاع حقوقه المهضومة طيلة مدة الاحتلال.

واتضح خاصة أثناء قيام الفرنسيين باحتفالات رسمية يحتفلون بفخر واعتزاز بمرور مائة سنة بعد الاحتلال وكان الجزائريون والطبقة المثقفة يشعرون بالعار والكراهية وأنهم فعلا حرموا من السيادة،فعزموا على أن تكون هذه الاحتفالات نقطة انطلاق للاحتجاجات والمظاهرات والمطالبة بالحقوق المهضومة،فكان عاملا جوهريا وأساسيا في قيام ومشاركة جميع الجزائريين بمن فيهم مثقفين وطلبة ومعلمين وعلماء في المظاهرة وتنظيم حملات تحسيسية ضد الوجود الفرنسي. 22

فأجابت السلطات الاستعمارية عن هذه التظاهرات بإنشاء عشر ورشات للإناث ومشاغل للذكور للصناعة التقليدية أي ما يسمى بالتعليم المهني،23 وفي الحقيقة هي مغالطة للرأي العالمي،حيث كان يهدف أساسا إلى تلقين معلومات للأهالي في معامل تمكنهم من القيام بأعمال أكثرها يدوية لصالح المعمر بالدرجة الأولى وتهميش اللغة العربية.

وفي هذا المقام نستدل بقول الكاتبة كولونا فاني (colonna fanny) عن التعليم المهني في تلك الحقبة من الزمن قائلة لقد وضعت أهدافا مضنية تخدم المصالح الفرنسية في الجزائر وذلك بتوفير ما تحتاجه فرنسا من يد عاملة وما يخدم مصالحها في شتي المجالات،إن هدف التكوين الممنوح للأهالي هو جعله رجلا مهذبا،مستنيرا، مستبصرا،صديقا للعمل مستعد للتقرب منا وهذا باستعمال اللغة الفرنسية ومعاينة التقدم الذي يساعده على المشاركة من أجل تحسين راحتهم وصحتهم،تطبيقاتهم الفلاحية،أعمالهم الصناعية وعلاقاتهم التجارية.24

محتوي البرامج التعليمية في عهد الاحتلال: كانت البرامج الملقنة لأبناء الأهالي تخدم في الغالب مصلحة المستعمر الفرنسي،فسعى منذ البداية إلى تنصير الجزائريين والقضاء على اللغة العربية،وتمجيد التاريخ الحضاري لفرنسا،وهذا ما سنحاول إبرازه في محطات مختلفة ومتباينة ومهمة لوتيرة المنظومة التعليمية لا التربوية.

* كان تاريخ الجزائر لا يدرس إلا ثلاثة أسابيع خلال المرحلة الابتدائية كاملة بينما تاريخ فرنسا يدرس ويراجع عدة مرات خلال المرحلة الابتدائية.25

* تأسيس مدارس مسيحية سنة 1878،تعتمد على برامج دينية مسيحية ويسيرها مسيحيون،ولم يعرقلها المستعمر لتقوم مقام المدارس الرسمية.

* أما في برنامج 1890 فقد سطرت أهدافا تخدم الوجود الفرنسي ومحاربة عمدا وقصدا و بجميع الوسائل الموضوعة بين أيديها،تعليم الصغار الجزائريين والقضاء على اللغة العربية،وفي سبيل ذلك اعتمدت على تكوين الموجه بلياقة،وهذا بجعل الأهالي حسبها أكثر جدارة بالنجاح في وسطهم بدون إسقاطهم من رتبهم،أي جعل الشباب القبائلي يعرف استعمال السماد البسيطة جدا،اختيار البذور،استخدام الفأس، تمكينه من ترميم منزله بصلابة ونظافة أكثر،أهم من تعلم اللغة العربية التي هي في اعتقادنا بدائية ولا تواكب التحضر الفرنسي،وهذا كافٍ لتقدير حمائل المدرسة الفرنسية.26

* في سنة 1950 صدر مرسوم لتأسيس بعض المدارس الإسلامية وببرامج تعليمية فرنسية محضة تحارب أيضا من خلالها الهوية الوطنية ومكانة اللغة العربية،ففي المرحلة الأولى تدرس اللغة الفرنسية وآدابها،الجغرافيا،التاريخ،القوانين والأنظمة الإدارية الحساب،ومبادئ الهندسة،العلوم الطبيعية ومبادئ الصحة العامة وكلها تدرس باللغة الفرنسية،وهناك مواد أخرى تدرس كاللغة العربية وآدابها،التوحيد والفقه الإسلامي.

أما المرحلة الثانية فتدرس المواد التالية: تاريخ الحضارة الفرنسية،مبادئ القانون الفرنسي،الأدب العربي،الفقه،التفسير،لكن بدون الإقبال الطوعي للأبناء الجزائريين لتلك المدارس،خلافا لادعاءاتها المتكررة الباطلة الكاذبة بإجبارية ومجانية التعليم. 27

لقد أعطيت للمدرسة الفرنسية مهام جليلة،وذلك لا يكمن في تكوين اليد العاملة ولا الوساطة بينها وبين الشعب الجزائري،وإنما جعلت من المدرسة وسيلة لتنتقد بحدة وطنية الشعب الجزائري،العروبة والإسلام،ولتتمكن من تحقيق الأهداف المسطرة في الواقع أكثر مما مضى،اختارت بعناية جد مركزة محتوى البرامج التعليمية المقدمة للأهالي تماشيا مع طموحاتها العدوانية للشعب الجزائري وللغة العربية بصفة خاصة.

كانت تحتوي هذه البرامج عناوين كبرى وكل منها يحتوي على مواد تدريسية معينة في كل مرحلة كاللغة الفرنسية،الحساب،الرسم،الفلاحة،الأعمال اليدوية التربية الخلقية معارف مستعملة عادة،مفاهيم حول فرنسا والجزائر وأخيرا اللغة العربية،28ووضعت لكل مادة أهدافٌ معينة.

وحتى نكون على علم مرة أخرى بفداحة النقص في تعليم أبنائنا،وتغييب تعليم اللغة العربية عمدا نورد بعض الأهداف لبعض المواد التي كانت تراها فرنسا أساسية في تعليم الأهالي،بغية التوضيح والإلمام في هذا العنصر خطورة تلك البرامج المطبقة آنذاك على اللغة العربية والعربي،ومن بينها مادة اللغة الفرنسية،ومادة التربية الخلقية.

أهداف تعليم مادة اللغة الفرنسية: كانت تسعى إلى محو اللغة العربية منذ البداية و بأي وسيلة أو محتوى من عقلية الطفل الجزائري،ويتضح من خلال كتابات الكاتبة الفرنسية كولونا فاني (colonnafanny) إن تعليم الأهالي بالجزائر يجب أن يتضمن قبل كل شيء تعلم اللغة الفرنسية على اللغة العربية،إنها نقطة الانطلاق الضرورية في المدرسة... ستصبح اللغة الفرنسية هي التي تسهل العلاقات بين الفرنسيين والأهالي، وهي وحدها التي تجعل التقارب بينهم ممكنا قبل أي رغبة أخري.29

أهداف تعليم مادة التربية الخلقية:كانت تنظر إلي الطفل الجزائري ككيان ناقص ولا عقل له ويجب تكوينه وتربيته،لذا أقرت في النظام التعليمي التربية الخلقية،وتتمحور أهدافها حسب الكاتبة الفرنسية كولونا فاني (colonna fanny) في قولها التالي: « إنه لا يكفي أن نعلم الأهالي وإنما يجب أيضا أن نهذبهم إذا كان مجديا أن نعلمهم لغتنا ونعلمهم الحساب والرسم وبعض المعارف دائمة الاستعمال ومفاهيم في الفلاحة وتعليمهم بعض الأعمال في الخشب والحديد يجب قبل كل شيء أن ننمي فيهم ما يجعلهم مهذبين، إن التربية الأخلاقية حصة جد مهمة من العمل المدرسي»30.

فنستطيع القول مما سبق،بأن المستعمر الفرنسي حارب عمدا مكانة اللغة العربية بوضع برامج تمجد الحضارة الفرنسية والأهداف السامية لفرنسا،عبر منطلقات السياسة التعليمية الاستعمارية وحشية .

منطلقات السياسة التعليمية الاستعمارية: لكل منظومة في العالم فلسفتها و منطلقاتها الفكرية،وللمنظومة التعليمية الفرنسية فلسفتها وأسسها،ويتمتع بها من يتمتعون بحق المواطنة الفرنسية فقط،أما الجزائريون

فكان التعليم المطبق يرتكز على أسس ومنطلقات استغلالية استعمارية،تختلف تمام الاختلاف في أهدافها ورسالتها عن المنظومة الفرنسية الأصل وهذه أبرز معالم هذه المنطلقات:

- الجزائري إنسان ناقص لا عقل له،إن أول ما عمد له الاستعمار الفرنسي في الجزائر،وسعي لترسيخه،هو محاولة تجريد الجزائري من آدميته كإنسان بشري.31
- تحديد المحتوى،والبرامج التعليمية التي لا يتجاوزها الجزائري في تعلمه وتكوينه: أي البرامج المقررة لتعليم الأهالي تخدم بالدرجة الأولى الوجود الفرنسي ولا تبالي برفع القيمة الطبيعية والمهنية للشعب الجزائري.
- استبعاد اللغة العربية من المدارس32،وعزلها عن النشاطات الاقتصادية والسياسية التي احتكرها المحتل.
- عدم الاعتراف بالكيان الجزائري،لا كدولة،ولا كأمة: وتتضح معالمه في المنظومة التربوية التي وضعت للجزائريين عديمة الشخصية الوطنية،فرنسية الملامح والأعماق.
- اقتصار التعليم على حفظ القرآن الكريم وحده وعدم التعرض إلى تفسير الآيات الكريمة وخاصة تلك التي تتعلق بالجهاد وتندد بالظلم والاستبداد.
- طغيان الاتجاه الاستعماري:ويتجلي بوضوح في الاستغلال الهمجي والفادح للطبقة البشرية،وتسخيرها في القيام بالأعمال الشاقة والحقيرة تحت مظلة التعليم التقني الفلاحي أو التعليم المهني.33
- فتح مدارس مسيحية في دولة إسلامية وتهدف من ورائها إلى تمسيح الجزائريين ودعم العمليات التبشيرية،من أجل القضاء على الدين الإسلامي واللغة العربية معا.
- اتخاذ المدرسة الفرنسية كوسيلة من وسائل الإدماج والتجنيس،وإذابة الشخصية الجزائرية.
- عدم تدريس المواد الرياضية والعلمية بصفة منتظمة ومتسلسلة حتى لا يكتسب المتعلم الجزائري تلك العلوم بصفة صحيحة. 34

بوادر النهضة التربوية الحديثة:واجه الجزائريون الوجود الفرنسي منذ النزول بالأرض الجزائرية باشمئزاز ونفور بل كان هذا النفور والكراهية يتزايد ويتضاعف من جراء السياسة الاستبدادية الفرنسية تجاه شباب الجزائر،وخاصة في ميدان التعليم.

ومن أجل تحقيق ذلك قامت بالقضاء على الهياكل التعليمية التي وجدتها،إمّا بغلقها أو تحويلها عن أغراضها ومقاصدها وأحيانا بتخريبها،ولفرنسا الحق في تولي قضية التعليم والتثقيف بالنسبة للجزائريين،مما خلق نوعا من الوعي القومي في نفسية الشعب الجزائري ومنها الطبقة المثقفة سواء في داخل الوطن أو في الخارج.

وفي هذا الصدد قرر علماء جزائريون ونخبة من المثقفين من خريجي الجامعات في البلدان الشقيقة أن ينشئوا مدارس في الجزائر وينظّموا فيها تعليما عربيا حرا لسد فراغ وتكوين الأجيال الصاعدة وإذكاء الوعي بكل ما يهم مستقبل بلادنا،ومما زاد في ازدهار التعليم العربي الإسلامي الحر في هذه الحقبة

الصعبة من الزمن،ظهور جمعية العلماء المسلمين إلى حيز الوجود،وعملها من جديد لإحياء الدور التربوي لكل من المساجد والزوايا والكتاتيب.35

الدور التربوي لجمعية العلماء المسلمين: كانت الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر،واحتفاله بها احتفالا مهينا للمسلمين،إلى جانب المضايقات الكثيرة والمتعددة،من أهم العوامل التي أدت إلى ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رسميا يوم 05ماي 1931،حيث كانت تضم مجموعة من العلماء،من بينهم الشيخ البشير الإبراهيمي ومبارك الميلي والشيخ العقبي وغيرهم من العلماء الأجلاء تحت قيادة عبد الحميد بن باديس وقد كان شعار الجمعية الإسلام ديننا والجزائر وطننا والعربية لغتنا،وهكذا فتحت الجمعية جبهة من جبهات الصراع والمقاومة ضد فرنسا ووجودها على التراب الجزائري.

ابتدأ ابن باديس مشروعه في الحقيقة عام 1913 بالتفرع التام للتعليم الحر المسجدي المنظم،ويختلف عن التعليم العربي الحر المعروف في الماضي بنظام محكم،وبتوجيه واضح نحو أهداف معينة. كان جل اهتمامه الأول وانشغاله في تكوين الرعيل الأول الذي يتحمل في المستقبل عبء القيام بتحقيق الأهداف المسطرة والمتمثلة في المشروع الضخم الذي تبناه،فجمع من حوله خيرة الشباب من حفظة القرآن الكريم ومن الراغبين في التعلم من مختلف أنحاء القطر،يعلمهم ويرشدهم،وفي نفس الوقت يهيئهم يكونهم لمهنة تدريس وحمل المشعل.

وهكذا أنجزت جمعية علماء يخدمون الإسلام بتبيين حقائق ونشر علومه بالجزائر مدارس عديدة في ظروف شاقة بعد تكوينها في شهر ماي سنة 1931 والتي بلغ عددها 150 مدرسة عشية اندلاع الثورة المباركة 1954،تستوعب مقاعدها حوالي 50 ألف طفل وطفلة يدرسون مبادئ لغتهم وآدابهم وأصول دينهم وتاريخ قومهم. 36

أ) نشاطات الجمعية: اهتمت جمعية العلماء المسلمين منذ تأسيسها على يد العلامة الشيخ أحمد ابن باديس رحمه الله في نشاطاتها المتعددة على توعية الشعب الجزائري وفضح نوايا وأبعاد المستعمر الفرنسي،وتركيزها على التعليم الديني للأهالي، معتمدة في ذلك على المؤسسات التربوية التقليدية ،من مساجد و زوايا وكتاتيب،كما أنشأت مدارس خاصة بها مستقلة عن الإدارة الفرنسة.

- من أهم النشاطات والعمليات التي قامت بها الجمعية:
- إعداد المدرسين للقيام بمهام تكوينية.
- تعليم الأطفال الجزائريين تعليما وطنيا أصيلا،وذلك بالدعوة إلى إنشاء مدارس حرة.
- تجديد طرائق التعليم وإعادة النظر في المناهج،حتى تواكب التطورات المتجددة ولمواجهة المدرسة الفرنسية.
- إنشاء صحافة تخدم الهدف،وتبلغ الرسالة إلي جميع شرائح المجتمع،مثل صحيفة المنتقد وغيرها من الصحف.37

لم تكن مهمة الجمعية سهلة كم يظن البعض،بل كانت في صراع مستمر ودائم مع المستعمر الفرنسي بشتى الوسائل والإمكانيات المتاحة له مقارنة مع إمكانيات الجمعية المحدودة والبسيطة،لعرقلة مسيرتها النضالية وتحقيق الاحتلال الذهني،بكسر المنظومة التعليمية الفتية.

ولكن رغم هذا وقفت الجمعية بعزيمة وقوة أكثر من سابقتها،لتصدى المستعمر ومواصلة مسيرتها التحررية بتوعية الشعب وإحياء الروح القومية عنده،ونشر التعليم العربي الإسلامي بين الجزائريين مهما كانت الظروف والأسباب المعرقلة. و عليه يمكن توضيح أهم الأهداف التي سعت إليها منذ نشأتها وعلى لسان أحد أبرز أعضائها .

ب) أهداف الجمعية: ذكر الشيح الفاضل البشير الإبراهيمي أهداف جمعية العلماء المسلمين،للمستعمر الفرنسي عند حديثه عن مشكل العروبة في الجزائر بظروف تأسيسها وهو يقول: جاء الدور الثاني لجمعية العلماء وهو دور التربية الإسلامية والتعليم العربي الابتدائي الحر المشتمل على مبادئ العربية وآدابها ومبادئ التاريخ الإسلامي والتربية الإسلامية الصالحة،وجاء معها الصراع العنيف مع السلطة الاستعمارية،استعدت الجمعية بالعزيمة والإيمان للتصدي وتجاهل المضايقات الاستعمارية وتوطين النفوس على المكروه الذي يصيبها في تعليم الدين والعربية،وتوحيد المسلمين في الدين والدنيا،ومحاربة فكرة التفرقة بين الأهالي.38

الخاتمة : خلاصة القول،ومن خلال ما تقدم ذكره للمراحل التاريخية التي مر بها المجتمع الجزائري،البدايات الأولى الحقيقة والتأسيسة في نفس الوقت لمعالم التعليم والتربية بالجزائر حضاريا ،ثقافيا ودينيا رغم هيمنة المستعمر الفرنسي وكيف كان الدين موجها لحركة الثقافة،لم تكن التربية والتربية والتعليم قضية سياسية يوما،بل كانت قضية اجتماعية بحتة يلتف بها المجتمع أفرادا وجماعات،تمويلا وتدريسا ورعاية هذا من جهة ،أما من جهة أخرى فقد ظل التعليم مرتبط ارتبطا وثيقا بثوابت الأمة وانتماءاتها الحضارية،رغم الإمكانات البسيطة المادية و البشرية ،وضعف المناهج ونفور المثقفين الجزائريين نتيجة الضغط المفروض عليهم ،بغية طمس وتشويه معالم الحضارية للأمة الجزائرية، لكن رغم الصعوبات المتنوعة والغبن والحرمان استطاعت المقاومة المثقفين الوقوف ضد سياسة أقوى الإمبراطوريات الاستعمارية بشتى الوسائل لفرض الهوية العربية وتعليمية اللغة العربية بموازاة اللغة الفرنسية.

وعليه يمكن القول إن النظام التربوي في الجزائر لم يولد بعد الاستقلال فقط،بل ولدت مرجعياته بولادة المجتمع نفسه ووجهت ببطولاته وانجازاته عبر مراحل تاريخية التي ارتسمت من خلالها هوية المجتمع الجزائري ومكوناتها،بما يميزها من تعايش للثقافات والتضامن ضد كل أجنبي محتل.

هوامش البحث :

[1] - النشرة الرسمية للتربية الوطنية ،تنظيم التربية و التكوبن في الجزائر ،الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية ،الجزائر ،سنة1995،ص06.

[2] - مصطفي الأشرف ، الجزائر :الأمة والمجتمع ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر،سنة1983 ،ص414.

[3] بوفلجة غيات ،التربية والتكوين بالجزائر ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،سنة1992 ،ص48.

[4] touati seddikK ;la formation descadres ,o.p.u. ,alger ,p35-36.

[5] أبو قاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،من القرن 10الى 14 هجري ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،سنة1985 ،ص316.

[6] - المرجع نفسه ،ص317.

[7] النشرة الرسمية للتربية الوطنية ،تنظيم التربية والتكوين في الجزائر ،ص06.

[8] الطاهر زرهوني ،التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر،سنة 1994 ،ص14.

[9] تركي رابح ،الشيخ عبد الحميد ابن باديس ،رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1985 ،ص127.

[10] misme musulman en algerie , ,mouton ,paris ;1967 ,pp324-325. me rad Ali ,le refor

[11] - بوفلجة غيات ،التربية والتكوين بالجزائر ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،سنة1992 ،ص17.

[12] بوفلجة غيات ،التربية والتعليم بالجزائر ، ص16-17.

[13] أبو قاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،من القرن 10الى 14 هجري ،ص346-347.

[14] - تركي رابح ،الشيخ عبد الحميد ابن باديس ،رائد الإصلاح والتربية في الجزائر 1985 ،ص 128.

[15] - رواه ابن ماجة وغيره ،،وصححه الشيخ الألباني ،صحيح الترغيب و الترهيب مكتبة المعارف ،الرياض ،ط05،ج01،ص17.

[16] - Turin yvonne ,affrontement culturels dans l algerie coloniale ,e.n.a.alger,1983p371

[17] - بوفلجة غيات ،التربية والتعليم بالجزائر ، 2006 ،ص19.

[18] الطاهر زرهوني ،التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال،ص13.

[19] - يحي بوعزيز ،سياسة نابليون الثالث اتجاه الجزائر من خلال أقوله ورسائله 1852-1870 ،الثقافية ،ش.و.ن.ت،الجزائر،سنة 1979 ،ص22-23.

[20] الطاهر زرهوني ،التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال،ص16 .

[21] - بوفلجة غيات ،التربية والتكوين بالجزائر ،ص 32.

[22] - محمد الطيب العلوي ، التربية بين الأصالة و المعاصرة ،ص118.

[23] - الطاهر زرهوني ،التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال،ص23.

[24] colonna fanny ,les instituteurs algeriens-1883-1939- ,o.p.u ;alger ,1975 ,p19.

[25] تركي رابح ،الشيخ عبد الحميد ابن باديس ،رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ،ص 135.

[26] - colonna fanny ,les instituteurs algeriens-1883-1939- ,p19

[27] - تركي رابح ،الشيخ عبد الحميد ابن باديس ،رائد الإصلاح والتربية في الجزائر،ص 150.

[28] -colonna fanny ,les instituteurs algeriens-1883-1939- ,p208

[29] محمد الطيب العلوي ، التربية بين الأصالة و المعاصرة ص138.

[30] colonna fanny ,les instituteurs algeriens-1883-1939- p208.

[31] محمد الطيب العلوي ، التربية بين الأصالة و المعاصرة 1998،ص60.

[32] - النشرة الرسمية للتربية الوطنية ،تنظيم التربية و التكوبن في الجزائر ، ص06.

[33] - الطاهر زرهوني ،التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال،ص21.

[34] - تركي رابح ،الشيخ عبد الحميد ابن باديس ،رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ،ص 154.

[35] - بوفلجة غيات ،التربية والتعليم بالجزائر ،ص25.

[36] - الطاهر زرهوني ،التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال ،ص29.

[37] - محمد الطيب العلوي ، التربية بين الأصالة و المعاصرة ، ص 110.

[38] - بوفلجة غيات ،التربية والتعليم بالجزائر ،دار الغرب للنشر والتوزيع ،الجزائر ط02 ،سنة2006 ،ص27.